من مشاكل التاريخ

طبيعة الفتح الاسلامي

الأستاذ خليل جمعة الطوال

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

يقول درمنغهم في كتابه حياة محمد : « ... وكان محمد يفضل اهتداء رجل واحد إلى الله على جميع غنائم الدنيا »

وهل في تاريخ الحروب والأديان وصية بلغت من السمو الأنساني مبلغ هذه الوصية التي أوصى بها النبي (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل الأنصاري حين سيره على رأس وفد إلى اليمن ، وقال له : « يسر ولا تعسر ، وبشر ولا تنفر ، وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة ، فقل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »

تلكم هي ضالة المسلم المنشودة بعد أن تجرد قلبه من حب المال ، ومتاع الدنيا . وتلكم هي الطريق إلى هذه الضالة : شهادة فلجت الشرك ، وإيمان زعزع الأصنام

الجنة هي ضالة المسلم التي أخرجته إلى ربه مجاهداً للحصول عليها . الجنة التي لا تشرى بالصكوك ، والتي لا تنفع فيها الأموال . الجنة التي ليس في استطاعة بشر أن يلجها وإن غفر له جميع أهل الأرض ، إلا أن يكون مؤمناً بالله ، وبرسله والأنبياء ، الجنة التي ليس للمرء فيها أن يغفر لأخيه ، وأن يحل ذنوبه وخطاياه ، إلا أن يغفر له الله وهو خير الغافرين

أسر المسلمون في غزوة بني المصطلق عبد الله بن أبي ، وحاول عمر بن الخطاب قتله ، فقال له الرسول (ص) : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمداً يقتل أصحابه ...

ثم سمع ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي عزم ابن الخطاب ، فجاء النبي (ص) وقال له : بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني . وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال له الرسول : إذا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا

تلكم هي روح الفتح الاسلامي السامية

الله أكبر ! رجل يتقدم لقتل أبيه متطوعاً ، ليحمل رأسه بيده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لئلا يكون عليه غضاضة في دينه ، إن هو رأى غيره يقتله ، فتحمله عزة الجاهلية على الأخذ بثأره ، فيقتل مؤمناً بكافر ، ويدخل النار !

سبحانك ربي ! أية قوة جمعت في رسالتك هذه ، حتى استطاعت أن تحول النفوس الضارية إلى شعلة روحية سامية أضاءت الكون وقد كان ظلاماً حالكا !

أيحسن النبي صلى الله عليه وسلم ويترفق برجل طعن فيه ، وشنع عليه ، ويظل مع ذلك في الدنيا من يتهمه ، ويفتري عليه ..

هذه هي روح الفتوح الاسلامية على عهد النبي صلى الله عليه وسلم التي لم يعرف التاريخ قط فتوحاً أرحم وأشرف وأعدل منها.

وأما روح الفتوح الاسلامية الأخرى ، فحسبكم دليلا عليها هذه الوصية المثلى السامية التي أوصى بها الصديق قواده حين سيرهم لبث الدعوة إلى الاسلام : « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا توقدوا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيراً ، إلا لمأكلة

وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له :

وسوف تقدمون على قوم : يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فاذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها

لقد كان الفتح الاسلامي فتحاً روحيًّا مبيناً ، خضعت له الجزيرة بأسرها دون أن تجري الدماء فيها أنهاراً ، فتحاً دام تسع سنوات لم يقتل فيها إلا (٢٤٠) من المشركين و (٢٥٨) من المسلمين . فلا عجب إذا اتسمت بهذه الروحانية السامية ، لأن الروحانية كانت العامل الأكبر فيه . فمن أين جاء الجاحدون بهذه الفزوات الدامية التي امتلأت بها كتبهم ، وبحت بها حناجرهم ؟ من أين جاؤوا بهذه المغانم والأرزاق والأسلاب التي أغرت المسلمين على التمادي في الغزو والنهب والسلب ؟!

إنه فتح كان الدين غايته ، ولولا الدين لكان له غير هذا الشأن

كتب عدي بن أرطأة عامل العراق إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « إن الناس قد كثروا فى الاسلام ، حتى خفت أن يقل الخراج » فكتب إليه عمر يقول : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا »

أما والله لو أن حاكما كتب إلى حكومة بلاده ، يصف لها قلة خراج ولايته ، لما تحرجت تلك الوزارة عن عزله ، ولاجتمعت الأمة بأسرها تعالج تلك الأزمة الاقتصادية المخيفة ، ولكن الاسلام إنما جاء ليهدى القلوب ، لا ليبتز الجيوب « فان الله إنما بعث محمداً هادياً لا جابياً »

قال عمر بن عبد العزيز فى خطبة له : « وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم » اه . ولسنا بحاجة إلى التعليق على هذه الجملة الموجزة وعلى ما تنطوى عليه من الكره لا للغزو والنهب والسلب فحسب ، بل لجميع متاع الدنيا

تلكم هي حجة الخصوم فى حب الاسلام للنهب والغزو ، قد سقطت بين أيديهم ، قصاصة ورق ، تتلاعب بها الرياح وأمواج الحقيقة ...

أما القول بأن العرب كانوا وسطاً فى القتال فلا يدل إلا على جهل صاحبه بالفطرة العربية ، وبأخلاق سكان الصحارى الموحشة ، والبرارى المقفرة ، التى يعوى فيها الذئب ، وتصول السباع . ومن شك فى تبريز العرب وبصرهم بأحوال القتال ، فليستنطق ربوع الأندلس والهند وفارس وأفريقا ، بل وفرنسا ، يوم كانت خيول مصر وقحطان تسرح فى شرق البلاد وغربها . وكان مجرد اسم العرب يوقع الرعب فى قلوب الأعداء لما كان يبلغهم من أنباء فروسيتهم وبطولتهم ...

بقى أمر الحروب الصليبية ، وقول من قال إنها كانت حروب البسالة والشهامة وأن الصليبيين كانوا عجباً بأنظمتهم وترتيباتهم . ولسنا نزيد فى دفع هذا الكلام الغث على إيراد شهادات وأقوال بعض المستشرقين الكبار ، وذلك لنكون بعيدين عما يدفع الغير لاتهامنا بالتغرض والتحيز

يقول ديسون : « آن لنا أن نتناول الحروب الصليبية بالبحث تلك الحروب التى بذرت روح العداء بين الاسلام والمسيحية ... فلقد مشى فيها أقوام كان همهم السلب والنهب والسرقة والقتل ، وزاد فى ذلك ما وجدوه فى طريقهم إلى القدس من وعثاء السفر والمشقات . والحقيقة أن الصليبيين — عدا من كان فى جيوشهم من اللصوص والمجرمين — قد ظهروا للعالم كبرابرة مخيفين ، وقد أظهروا فى آسيا صنوفاً من الوحشية والفظائع لم تعهدها قط هذه البلاد التى كان قد مر عليها أربعة قرون آمنة فى ظل نظام عربى لم تر له من قبل مثيلا

وقد اقتحم الصليبيون القدس فى ١٥ يولية ١٠٩٩ وقتلوا فى اليوم نفسه عشرة آلاف من المسلمين التجأوا إلى جامع عمر ظناً منهم أنه يحميهم من وحشية أعدائهم ، ولم يكفهم هذا قط ، ولا نقع غليل نفوسهم المعطشى للدماء بل راحوا فى الأسبوع نفسه يقتلون من المسلمين واليهود والمسيحيين (غير الكاثوليك) ما ناهز (٦٠) ألف نسمة

وكان خلفاء الصليبيين كأجدادهم فظاعة وعسفاً حتى لقد وصفهم بعض كتاب المسيحية وصفاً مؤلماً ، وقال أنهم ليسوا من المسيحية الغراء فى شيء ..

وقال الأب ريموند داجيل : « لقد اشتد القتل فى هيكل سليمان ، وكثرت فيه الجثث حتى أن الجند الذين قاموا بهذه الذبحة لم يعد بإمكانهم أن يطيقوا الرائحة التى كانت تتصاعد من جثث القتلى » .

وقال روبرت ل موان : « لقد بدأت مذبحة الترك فى ١٣ ديسمبر ولم يكف ذلك اليوم لقتل جميع الأسرى فأجهزنا على البقية فى اليوم التالى » .

وقال ميشو : « تعصب الصليبيون فى القدس تعصباً لم يسبق له مثيل حتى شكا منه الكتاب المنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون العرب على إلقاء أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاماً للنار ، ويخرجونهم من الأقبية ، وأعماق الأرض ، ويجرونهم فى الساحات ويقتلونهم فوق جثث الآدميين ، ودام الذبح فى المسلمين أسبوعاً حتى قتلوا منهم على ما اتفق على روايته مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة ، ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح فوضع الصليبيون النار فى المذبح الذى لجأوا إليه ، وأهلكوهم كلهم بالنار ... »

وجاء فى تاريخ الأمير حيدر : « ... أخذ ريشارد قلب الأسد سبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس تل عكا ، بمرأى من عساكر صلاح الدين ، وبقر عسكره بطون المقتولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ، ظنا منهم أنهم ابتلعوا

شيئاً منها ، وحباً بالانتفاع بعرائرهم يتخذونها دواء يستشفون به . »

وجاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : « . . بلغت دماء المسلمين التى سفكها الصليبيون فى المسجد الأقصى حداً فظيعاً بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجليه دماء المسلمين التى سفكت فى ذلك الحرم المقدس ، وسالت كالسيل المنهمر !! ... »

وكتب ريكولدوس حوالى عام ١٢٩٤ فى مدح المسلمين قائلاً : ومن ذا الذى لا يعجب بحماستهم وخشوعهم فى صلاتهم ، ورحمتهم الفقير وبتقديسهم اسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وبحسن حديثهم ، ولطفهم مع الغريب ؟ »

ولله درغوستاف لوبون إذ يقول « كان يتظاهر الصليبيين بأنهم يقصدون خدمة دينهم بالاستيلاء على القبر المقدس ، ولكن الواقع أنهم كانوا متحللين من جوهر الدين ، وأقرب إلى نزع شعاره متى رأوا مغنماً لهم ، أو فاحشة يأتونها

شهادات فى الفتح والحضارة الاسلامية : —

جاء فى مقالة : للعالم الفرنسى ليوتي ـ نقلاً عن الأهرام ـ « وإذ كان فريق من ذوى الأغراض الملتوية ، يزعم أن الاسلام ـ بفتوحه ـ يحث على التدمير والفوضى والتعصب ، فأنى بعد أن قضيت بين المسلمين مدة من الزمن فى الشرق والغرب ولم أكتف بما قرأته عن الاسلام فى الكتب — أقول إن جميع تلك المزاعم لا نصيب لها من الصحة : » ..

وقال العالم الأمريكى لوثرب ستودارد ، فى كتابه (حاضر العالم الاسلامى) : ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء ، وترغب فى الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليلة الأخلاق والمزايا ، توّاقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة فى اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التى انتهت إليها ، من الحضارة السالفة ، وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً . وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة ، وهى جماع متجدد التهذيب اليونانى والرومانى والفارسى . وذلك المجموع هو الذى نفخ فيه العرب روحاً جديداً ، فنضر وأزهر ، والفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الاسلامى ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض . فأشرق وعلا علواً كبيراً ، وقد صارت الممالك الاسلامية ، فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها أحسن ... فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموع حكمة القدماء ، ومخزن علومهم ، يشعان إشعاعاً باهراً . وظل طيلة : هذه القرون الثلاثة يرسل على الغرب النصرانى نوراً ... »

ويقول هربرت جورج ولز « ساد الاسلام لأنه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت عنه الأعصر ، وكان حيثما حل يجد أمماً استولى عليها الذل والكسل ، وتفشى فيها الظلم والعسف ؛ ويجد حكومات متفسخة غاشمة ، مستأثرة مستبدة ، لا تربطها برعاياها أية رابطة ، فمدّ إلى البشرية يد المساعدة والانقاذ ... » .

وقال سيديو « إن الاسلام هو الدين السامى الذى استطاع أن يسير فى فتوحاته دون أن يترك وراءه أثراً للجور ، وكانت ترحب به جميع الأمم المغلوبة على أمرها لحكم الروم والفرس ... »

أفبعد هذه الشهادات الصريحة تقوم ضد الفتح الاسلامى حجة ، وينهض دليل ؟

هذه صورة من كتابنا « فى الدفاع عن الاسلام » الماثل للطبع ، وسنتقدم فى الأعداد المقبلة بكلمة أخرى نصور فيها الحضارة الاسلامية الزاهرة ، ومبلغ ما وصلت إليه من التقدم والرقى ، وما ذلك إلا نصرةً للحق ، وخدمة للعلم ، والله خير الناصرين .

شرق الأردن خليل جمعة الطوال

التصوف الإسلامي

فى الأدب والأخلاق

بقلم الدكتور زكى مبارك

يقع هذا الكتاب فى مجلدين كبيرين وثمنهما معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة